تطور البحث اللغوي في موسوعة
(المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته)

م.م. أحمد جاسم ثاني
جامعة البصرة/ كلية التربية
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين أبي القاسم محمدٍ وآل بيته الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

منذ نزول النص القرآني الكريم وإلى الآن لم يزل البحث في مقاصده وفهم دلالاته وتفسيره في تطور دائم، وهذا جزء من سر إعجازه وخلوده، وقد بذل العلماء من المفسرين والباحثين جهوداً مضنيةً في الكتابة والتأليف عنه، فجاءت مؤلفاتهم متنوعة من حيث الموضوعات والإتجاهات، إلا أنهم ركّزوا في دراساتهم على لغته وإعجازه وبلاغته، فبرز من بينها الإتجاه اللغوي أو الأدبي الذي عني بتدبر لغة القرآن، وتفسير الغريب من ألفاظه، والوقوف عند أسلوبه وبيانه وأسرار تعبيره وبلاغته ... ولمّا كان القرآن معجزة الإسلام الخالدة كان من لوازم إعجازه أنه حمّال ذو وجوه، وتتسع دلالاته باتساع الزمان، لذا فإنه ليس بالغريب أن نشهد محاولات جديدة في فهمه وتوضيحه وتفسيره.

ومن الجهود القيّمة في عصرنا هذا الموسوعة الكبرى التي أنتجها مجمع البحوث الإسلامية التابع للعتبة الرضوية المقدسة، وحملت عنوان: (المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته)، وقد تحمّل عبء هذه الجهود ثلةٌ من العلماء والفضلاء والأساتذة الأجلاء، وبذلوا ما بوسعهم من أجل الشمولية في البحث القرآني، وإغناء الباحثين وطلاب العلم من الرجوع

إلى مختلف التفاسير والمصادر اللغوية والتاريخية وغيرها، ومن جهة أخرى فإنها شهدت تطوراً وتجديداً في البحث اللغوي القرآني، وهو ما سنفصل القول عنه في هذا البحث.

وصف المعجم:

بدأ هذا المشروع العلمي تحت إشراف الراحل آية الله محمد واعظ زادة الخراساني، وتمّ في عهده إصدار إحدى وثلاثين مجلداً من الكتاب، وهو من أهم آثار مجمع البحوث الإسلامية في مجال علوم القرآن والدراسات القرآنية، ولهذا الكتاب القيم خصائص تميّزه عن الجهود المعجمية السابقة، فهو يبحث في ألفاظ القرآن ومعانيها وجذورها اللغوية، وذلك بالرجوع إلى أمهات كتب اللغة وأكثرها أصالة وتوثيقًا، كما يضم الكتاب كثيرًا من آراء المفسرين على اختلافها، وهذا يعد ميزة فريدة يختص بها الكتاب؛ لأنه لا يوجد أي كتاب آخر اعتنى بهذا المقدار بنقل مختلف أراء المفسرين ونظرياتهم سواء كانوا من المتقدمين أو المتأخرين، وهذا الأمر عائد إلى عمل دؤوب ومضنٍ قام به الباحثون المشاركون في إعداد الكتاب الذين راجعوا – بشكل دقيق – جميع المصادر التفسيرية قديمها وحديثها، ومن أبرز مزايا هذا الكتاب البحث في الجذر اللغوي الاشتقاقي لجميع المفردات، والوقوف عند المفردات الدخيلة على العربية التي وردت في القرآن الكريم، فضلاً عن البحث في المسائل البلاغية والتفسيرية[1].

وقد وصفه مدير قسم القرآن والمشرف على هذا المشروع الأستاذ محمد واعظ زاده الخراساني (رحمه الله) بقوله: ((وهو بحق أوسع وأعظم ما أُلّف في ميدان الألفاظ القرآنية، وما فيه من الأسرار البلاغية، إذ يضمّ نصوصاً لغويّة، وبحوثاً تفسيرية، وشواهد تاريخية وأدبية، تتعلّق بألفاظ القرآن ومفرداته، وأعلامه وأدواته، ونصوصاً من وجوه القرآن والنظائر، واختلاف القراءات واللهجات ومعضلات الإعراب والتركيبات ... ولا نغالي لو قلنا: إن الذين

يدرسون لغة القرآن تفقّهاً وتبصّراً، ويتناولونها تأمّلاً وتدبّراً، لَيستغنون بهذا المعجم عن غيره من المعاجم القرآنية، والتفاسير اللغوية ...))[٢].

وهو وصف دقيق لهذا الجهد العلمي الكبير الذي ضمّ مختلف المباحث اللغوية واختصر جهود السابقين ليكون مرجعاً جامعاً يغني الباحثين عن مراجعة المصادر المختلفة من تفاسير ومعجمات وغيرها من الدراسات القرآنية.

تطور المصطلح:

يؤمن أصحاب هذه الموسوعة بأن للقرآن الكريم فقه لغة خاصاً به يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإعجازه، فجاءوا بمصطلح جديد هو (فقه لغة القرآن) الذي يقابل مصطلح (النظم القرآني) عند المتقدمين ومصطلح (البيان القرآني) أو (الإعجاز البياني) عند المتأخرين، اعتقاداً منهم بأن هذا المصطلح الجديد أوفى بسرّ البيان القرآني ورمز الكلام الإلهي من أي تعبير آخر، لما تحمله لفظة "فقه" من دقة وعمق[٣]، جاء في لسان العرب: ((الفِقْه: العلم بالشيء والفهمُ له، وغلبَ على عِلْم الدين لسِيادَتِه وشرفه وفَضْلِه على سائر أَنواع العلم ... والفِقْه في الأَصل الفَهْم، يقال: أُوتِيَ فلانٌ فِقْهاً في الدين أَي فَهْماً فيه، قال الله عز وجل: ﴿ليَتفَقَّهوا في الدين﴾؛ أَي ليَكونوا عُلَماء به))[٤].

تطور البحث اللغوي:

يجمع هذا المعجم بين البحث اللغوي والبحث البلاغي فضلاً عن البحث التفسيري، قال الأستاذ الخراساني: إن هذا المعجم ((يبحث في لغات القرآن وكلماته، فيندرج تحت طائفة كتب "غريب القرآن ومفرداته" ... ومن جهة أخرى، فإن الكتاب يتكفّل بدراسة "بلاغة القرآن" في انتخاب الكلمات وسرّ إعجازها، فهو كتاب لغة وبلاغة وإعجاز قرآنيٍّ معاً، ويعتبر في الوقت نفسه تفسيراً موضوعياً حسب الكلمات، دون المواضيع ...))[٥].

ويمكن أن نتلمس ملامح تطور البحث اللغوي في الخصائص التي انماز بها هذا المعجم عن غيره من المعجمات، وتُعد إضافة جديدة للبحث المعجمي القرآني، وهي[٦]:

١- جمع النصوص اللغوية لكل مادة في القرآن، وذلك بالرجوع إلى معجمات اللغة مرتبة حسب الترتيب الزمني لأصحابها، مما يغني الباحث عن الرجوع إلى تلك المعجمات، ويكشف عن التطور التاريخي للدراسات المعجمية. من ذلك مثلاً ما جاء في لفظة (الأمل) إذ يورد المعجم النصوص اللغوية الواردة في المعجمات والمصنفات اللغوية التي تذكر دلالاتها، فيذكر أقوال اللغويين وهم كل من: الخليل والأصمعي واللحياني وابن الأعرابي والسجستاني والقالي والأزهري والصاحب وابن جني والجوهري وابن فارس وأبي هلال وابن سيدة والزمخشري وابن منظور والفيومي والفيروز آبادي والطريحي والجزائري والمصطفوي[٧].

٢- جمع النصوص التفسيرية الضرورية من مختلف التفاسير لكل مفردة بالأسلوب نفسه، مما يبيّن تطوّر التفسير اللغوي عبر الأزمان. من ذلك مثلاً تفسير لفظة (البرزخ) ينقل المعجم أقوال المفسرين في دلالة هذه المفردة، وهم كل من: الإمام علي (عليه السلام) وابن عباس والطبري والقرطبي وسعيد بن جبير ومجاهد والضحاك وابن كعب القرظي وقتادة والسدّي والكلبي والإمام الصادق (عليه السلام) والفرّاء والطبري والقمّي والرمّاني والطوسي والزمخشري والقرطبي والبضاوي والنيسابوري وأبو حيّان وابن كثير والبُرُوسوي والآلوسي والطباطبائي والمصطفوي.

٣- البحث في فقه لغة الألفاظ القرآنية، وصولاً إلى الجذر الأصلي الذي منه تتفرع الألفاظ والمعاني. وفيه أبحاث مبتكرة تفتح آفاقاً جديدة من فقه اللغة، وقد يُبحث في هذا القسم اشتقاق اللفظ في اللغات السامية وغيرها، ولاسيما الأعلام الأعجمية[٨]. من ذلك تفسير لفظة (آدم) جاء فيه: ((في "آدم" ثلاثة أقوال: الأول: هو اسم عبري، والثاني: سرياني، والثالث: عربي. والقول الأخير مختلف فيه؛ فقيل: هو مشتق من

أديم الأرض، وقيل: من الأدمة، أي وجه الأرض، أو الأسوة. وقيل: من الأُدْمَة أي السُمرة، أو الخُلطة، أو الأُلفة والاتفاق ... وورد "آدم" بلفظ واحد في العربية والسريانية، وفي العبرية "آدام"، وبألفاظ متقاربة في سائر اللغات السامية. وتوافقت العربية والعبرية أيضاً في اشتقاقه، ففي العبرية اشتُق من "أداما" أي الأدَمَة، وهو أحد الأقوال في العربية كما تقدّم))[٩].

٤- البحث في مشتقات الألفاظ وسرّ مجيئها متنوعة، مراعاةً للتناسب اللفظي والمعنوي في كل موضوع.

كما في مادة (ب س ر) إذ جاء منها لفظان في القرآن: (بَسَرَ) و(باسِرَة)، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (المدثر/٢١-٢٣)، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة/٢٢-٢٥).

فعلّل المعجم سرّ التنوع في هذه المادة بأنها جاءت لتناسب الفواصل بين الآيات في السور المكية التي عُرفت بالاسترسال وما فيها من الإنكار المؤكّد، فجاءت اللفظة الأولى مناسبة لصيغة (فَعَلَ): (نظرَ .. بسرَ .. أدبرَ)، وجاءت اللفظة الثانية مناسبة لوزن (فاعِلَة): (ناضرة .. ناظرة .. باسرة .. فاقرة)[١٠].

٥- الكشف عن العلاقات الدلالية أو التعدد الدلالي، وقد التزم المعجم بمصطلح العرب القدماء (الوجوه والنظائر) ويُراد بهما (المشترك اللفظي والترادف)[١١]. منها ما ورد في لفظة (رشد) بعد بيان دلالاتها المختلفة، يذكر المعجم أن من نظائر هذه المادة في القرآن[١٢]:

الهدى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة/٢).

والاستقامة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود/١١٢).

والدلالة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف/١٠).

والسداد: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ (النساء/٩).

ويبدو من ذلك أن أصحاب هذا المعجم يؤمنون بوجود ظاهرة الترادف في القرآن الكريم.

ومن المشترك اللفظي ما جاء في لفظة (آل)، فذكر المعجم – نقلاً عن مقاتل – أنها على ثلاثة وجوه[١٣]:

الأول: بمعنى القوم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ (القمر/٤١)، أي فرعون وقومه القبط.

الثاني: بمعنى أهل بيت الرجل، كما في قوله تعالى: ﴿... إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ (القمر/٣٤). يعني: لوطاً وابنتاه.

الثالث: بمعنى ذرية الرجل، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران/٣٣)، فآل إبراهيم: يعني إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وآل عمران: يعني موسى وهارون اختارهم للرسالة.

٦- شرح الأعلام القرآنية لفظاً ومعنًى، وتقديم خلاصة لما ورد في مصادر التفسير والتاريخ وكتب السير ومعاجم أهل الكتاب. من ذلك لفظ (آدم)، و(آزر)، و(إبراهيم)، و(إدريس)[١٤] ... وغيرها كثير.

٧- بيان سرّ الأعجاز القرآني في ضوء سياق الألفاظ، ويمثل البحث البلاغي في هذه المعجم، وهو ما جاء تحت عنوان (الاستعمال القرآني)[١٥].

ففي مادة (أمر) مثلاً يقف المعجم عند بعض النكات البلاغية، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿... قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (الكهف/٧١)، فيلاحظ المعجم أن النص القرآني: ((بدّل (إمراً) بـ (نُكراً) في الآية الثالثة بعدها ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ (الكهف/٧٤)، فعبّر القرآن عن قتل النفس المحترمة بـ (شيئاً نُكراً)، وعن خرق السفينة بـ (شيئاً إمراً)، لأن قتل النفس ليس أمراً عجيباً؛ يرتكبه الناس كثيراً، أما خرق السفينة فشيء نادر عجيب، وهو خلاف المتوقع، ناهيك من صدوره عن عاقل حكيم))[١٦].

كما يلاحظ المعجم إن ((في كسر الحرف الأول في (إمراً)، وضمّه في (نُكراً)، تناسب السياق ولطافة التعبير، لا يشعر به إلا مَن له حس مرهف في سرّ فقه القرآن وبلاغته، فإن إغراق السفينة بأهلها يوجب خذلان فاعله، وانحطاط قدره من طبقة العقلاء عند الناس، كما يبعث على رسوب السفينة بما تحمله في الماء. أما قتل النفس المحترمة، فيسفر عن إشتهار فاعله بين الناس بالجناية، وسوقه إلى العدالة، وربما يرقى المشنقة قصاصاً))[١٧]، فالكسر في أول حرف من (إمراً)، وضمّه في (نُكراً) جاء مناسباً لدلالة السياق، وهي ملاحظة بلاغية صوتية دقيقة تربط بين الأصوات ومعانيها.

٨- إضافة علم جديد إلى علوم القرآن لفهم القرآن وسرّ بلاغته وإعجازه، وهو علم (فقه لغة القرآن).

فضلاً عن ذلك فقد أفاد المعجم من مباحث علوم القرآن الأخرى كالمكي والمدني، والفاصلة القرآنية، والإعجاز العددي، والقراءات القرآنية، والرسم القرآني، والقصص القرآنية، كما أفاد من الدلالات النحوية لحروف المعاني وقد عبّر عنها بالأدواة والضمائر التي لها الأثر الكبير في فهم القرآن ولاسيما في فهم آيات الأحكام وتفسيرها ... وغيرها[١٨].

الخـاتمة:

لعل أهم ما أفاده البحث من هذه الجولة اليسيرة على ساحل بحر هذه الموسوعة الكبيرة الموسومة بالمعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته أنها موسوعة متلاطمة الأمواج، تأخذ القارئ إلى محطات علمية متنوعة، فمن النصوص اللغوية لكثير من المعجمات وأقوال اللغويين التي ينقلها المعجميون إلى البحث التفسيري الذي ينقلك إلى عالم آخر وفيه مختلف المفسرين والتفاسير وآرائهم، ثم ينتقل إلى الأصول اللغوية والمقارنة بين تلك الأصول في العربية وغير العربية من اللغات، والتنقيب عن أصول الألفاظ ولاسيما في الأعلام والألفاظ الأعجمية، واقفاً على الظواهر الدلالية التي أسماها بالوجوه والنظائر ومتأملاً بعض النكات البلاغية من تناسب للفواصل والمعاني ومراعاة السياق ... ومستأنساً بعلوم القرآن التي تعين على الكشف عن المعنى، كالمكي والمدني، والقصص القرآني، والقراءات ... وغيرها. مما يؤكد مدى الجهد العلمي المبذول في تأليف هذه الموسوعة، ويجعلها فريدة من نوعها، وهي بحق مصدر ثرٌ للباحثين، تغني وتختصر الطريق لهم من الرجوع إلى تلك المصادر والمراجع.

على أن هذه الموسوعة بحاجة إلى دراسة أعمق وأوسع وأشمل لاكتشاف ما فيها من جهود تجديدية في البحث اللغوي وهو ما لا تسمح به هذه الصفحات القليلة. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

الهوامش:

---

(١) ينظر: تصريح الشيخ محمد حسن مؤمن زادة مدير قسم الدراسات القرآنية في مجمع البحوث الإسلامية التابع للعتبة الرضوية المقدسة لموقع النعيم نيوز على الشبكة العالمية: http://news.alnaeem.tv .

(٢) المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته، لجنة التأليف: ١٣/١.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٦/١.

(٤) لسان العرب، ابن منظور: ٥٢٢/١٣.

(٥) المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته: ١٧/١.

(٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٧/١-١٨.

(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٣/٣-٢٤٥.

(٨) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣/١.

(٩) المصدر نفسه: ٥٢/١-٥٣.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦٩/٥-٤٧٠.

(١١) ينظر: مصطلحات الدلالة العربية، د. جاسم محمد عبد العبود: ٢٤٤.

(١٢) ينظر: المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته: ٦٦٥/٢٤.

(١٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٥/٤-٢٠٦.

(١٤) ينظر: المصدر نفسه: ٣٧/١ و ٥٧ و ٨٩ و ٧٠٥.

(١٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣/١.

(١٦) المصدر نفسه: ٢٣١/٣.

(١٧) المصدر نفسه: ٢٣٢/٣.

(١٨) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩/١-٣٢.

مصادر البحث

١- القرآن الكريم.

٢- لسان العرب، ابن منظور، ط/١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٥ هـ.

٣- مصطلحات الدلالة العربية- دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، د. جاسم محمد عبد العبود، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٧ م.

٤- المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته، تأليف وتحقيق قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلامية، بإرشاد وإشراف الأستاذ محمد واعظ زاده الخراساني، ط/٢، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٤٢٧هـ.

٥- النعيم نيوز على الشبكة العالمية: http://news.alnaeem.tv